مقدمة

كان العالم الانجليزى فرانسيس جالتون - ابن عمة تشارليس داروين - هو الذى صاغ كلمة "يوجينيا" عام ١٨٨٣. وهذا العالم هو رائد المعالجة الرياضية للوراثة، وقد اشتق الكلمة من جذر اغريقى يعنى "نبيل المحتد". كان يعنى بها "علم" تحسين الانسان عن طريق منْح "السلالات الأكثر صلاحية فرصةً أفضل للتكاثر السريع مقارنة بالسلالات الأقل صلاحية". أصبحت هذه الكلمة من ذلك التاريخ - وعلى حق - كلمة ذات مدلول كريه. لقد دُمجت أهداف اليوجينيا فى النصف الأول من القرن العشرين، مع التفهم الخاطىء لعلم الوراثة الحديثة لتسهم فى نتائج اجتماعية ظالمة بالغة الوحشية، بل وهمجية فى عهد النازى. ورغم ذلك فإن المنطق الجالتونى لايزال يبرز فى المجالات الاجتماعية، وبالذات فى ادعاءات القائلين بوجود أساس عرقى للذكاء، وفى بعض المسلمات فى البيولوجيا الاجتماعية البشرية، وفى بعض مشاريع الهندسة الوراثية فى الانسان.

كان من بين الأسباب التى دفعتنى إلى كتابة هذا الكتاب عن تاريخ اليوجينيا، معرفتى بأن الموضوع يلقى بظلاله على كل الجدل المعاصر فى موضوع المعالجة الوراثية فى البشر. إن تاريخ الفيزياء الحديثة (وهذا مجال سبق لى أن عملت به) يبين كيف كنا غير مهيئين للتعامل مع القضايا الهائلة التى اضطررنا إلى مواجهتها عام ١٩٤٥ عندما أُطلقت الطاقة النووية - وهذا إنجاز لم يتطلب سوى بضعة أعوام من الجهد المكثف. فى عام ١٩٦٣ أعلن عالم البيولوجيا الانجليزى الكبير ج. ب. هالدين أن التحوير الوراثى فى الانسان سينتظر على الأغلب آلافا من السنين، ثم استطرد قائلا "غير أننى أتذكر أننى عام ١٩٣٥ كنت أعتبر الطاقة النووية مصدرا غير محتمل للطاقة". إن اكتساب المعرفة والتقنيات للتدخل الوراثى فى الانسان سيثير تحديات لها حجمٌ يقارن بتحديات الثورة النووية - وإن اختلفت عنها نوعيا - ولقد حان الوقت كى نتفحصها فى النطاق التاريخى.

كان لدىّ أيضا اقتناع بأن اليوجينيا تحمل تنوعا ثريا من مواضيع البحث التاريخى ذاته. لقد أُجريت دراسات عديدة هامة فى الموضوع، غير أن معظمها كان يعالج القضية فى بلد واحد أو آخر، أوكان يُنظر إليها من خلال عدسة فناء البشرية، أو توقّفَت عن السرد عند أوائل ثلاثينات هذا القرن. ولقد جعلتُ هذا الكتاب تاريخا مقارنا لليوجينيا فى الولايات المتحدة وبريطانيا، من أواخر القرن التاسع عشر حتى الآن. كما عنيت بتجلياتها فى غير هذين البلدين - لاسيما فى ألمانيا - وذلك فى حدود تأثيراتها على التطورات الأنجلو أمريكية. ولقد أفادت المعالجة المقارنة فى تفسير ملامح معينة هامة من هذا التاريخ، كانت ستظل دونها محيرة - لماذا، على سبيل المثال، نجح برنامج التشريع اليوجينى، جزئيا على الأقل، فى الولايات المتحدة ولم ينجح على الاطلاق فى بريطانيا. قدمتُ أيضا تقييما نقديا لعلماء اليوجينيا الانجليز والأمريكان كما شهدتْ بها أعمالهم قبل وصول النازى إلى السلطة، ولقد قادنى هذا التقييم إلى أن أختلف عن التفسيرات السائدة لأقدِّم رؤية بديلة تقول إن اليوجينيا لم تتضمن فقط تبرير التحيز للطبقة والسلالة، وإنما ماهو أكثر من هذا بمراحل، مثل ذلك الجدل حول الطريقة التى تكيف بها رجال العصر الحديث - بل والنساء على وجه الخصوص - مع المعايير المتغيرة للسلوك الجنسى والتناسلى.

باسم اليوجينيا قيل وارتُكِب الكثير، حتى لَيَمزج هذا الكتاب بالضرورة بين تاريخ العلم والتاريخ الاجتماعى والثقافى والسياسى. إنه يسبر التفاعل بين التأكيدات الاجتماعية التى يقول بها اليوجينيون من ناحية، وبين منجزات العلوم ذات العلاقة من ناحية أخرى، لاسيما علم الوراثة وعلاقته بالانسان. ولقد تأثر هذا التفاعل وبشدة منذ نحو عام ١٩٣٠ بالبحوث فى وراثة الانسان. لقد تجرأتُ هنا وعرضت أول تقرير تاريخى عن تطور هذا المجال من أوائل الستينات، كما رسمتُ صورة تخطيطية لانجازاته الرائعة منذ ذلك التاريخ، ولم يكن ذلك بغرض تقديم كتاب شامل عن تفاصيلها - الوضع المعاصر مثلا بالنسبة للعلاج بالجينات - وإنما لكى أصوغ مثل هذه القضايا بطريقة دلالية تهدى إلى مايبزغ من المشاكل والاحتمالات.

هذا الكتاب ليس إذن دليلا تقنيا عصريا، وهو بالتأكيد ليس معالجة تاريخية كاملة. إننى أبدا لم أقع تحت وهم أن اليوجينيا ستوفر أية خريطة مفصلة، أخلاقيةً كانت أو سياسية، نلجأ إليها فى مجال الهندسة الوراثية البشرية الغامض. إن ماأتوقعه من مثل هذه الدراسة هو أن تقدم على الأقل بعض العون فى تمييز الفوائد التى قد نرنو إليها، من المخاطر التى قد

نخشاها. إننى آمل أن تقترح هذه الرحلة التاريخية على القارىء، مثلما اقترحت علىّ، طريقةً للتفكير فى مستقبل وراثة الانسان، وكيف يستطيع المرء أن يشق فيها، بحذر، سبيلا من الإدراك والمنطق واللياقة.

د. ج. كيفلس

باسادنيا ـ كاليفورنيا

ديسمبر ١٩٨٤

obeikandl.com